من بلاغة التذييل والتتميم في تفسير التحرير والتنوير

(الربع الأول من القرآن الكريم أنموذجا)

إعداد: د.عبد الله مهاجر خليفة قريرة•

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

أما بعد: فقد كان من توفيق الله سبحانه وتعالى، أن يكون الموضوع الذي تخيرته متصلا بأشرف غاية، وهي خدمة كتاب الله – سبحانه وتعالى – الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وفي ناحية من نواحي إعجازه.

وقد رغبت أن أتوقف في هذا البحث مع أسلوبين من الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، ألا وهما: التذييل والتتميم عند ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير في الربع الأول من القرآن الكريم، تكملة لرحلتي مع القرآن، لأنني والحمد لله تحصلت على إجازة في حفظه بالقراءات العشر، ثم بدأت أدرس أساليبه منذ دراستي في الماجستير، حيث كانت رسالتي بعنوان: أسلوب الأمر في القرآن الكريم وتنوع دلالاته البلاغية، ثم كانت أطروحتي في الدكتوراه: أسلوب الاحتباك في القرآن الكريم وتنوع دلالاته البلاغية، ثم بحث ترقية بعنوان: أسلوب الاحتراس في القرآن الكريم وتنوع دلالاته البلاغية، وبحث

• قسم اللغة العربية/ كلية التربية/ جامعة بني وليد

آخر بعنوان: التعقيب بأسلوب الاستفهام في القرآن الكريم، وها أنا أكمل الرحلة مع أسلوبين آخرين هما: التذييل والتتميم .

أسباب اختيار الموضوع :

1 – رغبتي الشديدة في دراسة كتاب الله – عز وجل – والبحث عن جماليات التعبير ومواطن الروعة فيه .

2 – خدمة لكتاب الله – عز وجل – لمزيد الكشف عن وجوه إعجازه، واستخراج كنوزه، واستنباط أحكامه، والسير على نهجه القويم .

3 – الإسهام بجهدي المتواضع في إيضاح مصطلحي: التذييل والتتميم في القرآن الكريم، وإبراز بلاغتهما، وفتح أبواب الدراسة فيهما.

4 – كثرة استخدام القرآن الكريم لهذين النوعين من البلاغة القرآنية، ما دعاني للبحث عنهما، للوقوف على دقائقهما .

5 – التذييل والتتميم قد تطرق لهما الكثير من المفسرين في تفاسيرهم عند الآيات التي اشتملت عليهما، مما يدل على الأهمية الكبيرة لهذين الفنين، خاصة وأنهما يردان إما مبالغة، أو احتياطا، أو صيانة من احتمال الخطأ.

الدراسات السابقة:

لم تكن هذه الدراسة الأولى التي تناولت هذين الأسلوبين، ولكن سبقت ببعض الدراسات، إلا أنه يفرقها عنها فروق في المنهج والنتائج، ولم أعثر على أي كتاب أو بحث يخص هذين الأسلوبين في تفسير التحرير والتنوير، والذي وقع تحت يدي ما يلي:

1 – أسرار تذييل الآيات في سورة التوبة، بحث منشور في شبكة المعلومات (الإنترنت) بدون ذكر مؤلفه ، ومن عنوانه لا يخص بحثي ، ولم ألتفت إليه .

2 – بحث بعنوان (من أسرار التذييل في آي من التنزيل) ، إعداد: د. رمضان خميس زكي الغريب، مقدم إلى كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر، وهذا البحث درس فيه صاحبه آيات من سورة البقرة من : 189 إلى : 202 فقط .

3 – التتميم في القرآن الكريم – عرض ودراسة تطبيقية – إعداد : رشا بسيوني يوسف الدسوقي ، بحث مقدم إلى : مجلة : الدراية ، العدد : الخامس عشر ، الجزء : الثاني ، 2015م، وهذا البحث ليس له علاقة بتفسير التحرير والتنوير .

وهكذا نرى أن هذا الموضوع ما زال موضوعا خصبا قابلا للدراسة .

مشكلة البحث :

لقد حاولت في هذا البحث أن أستدرك ما فات الدارسين في دراساتهم السابقة ، وأن أجيب على هذه الإشكالية وفقا لمنهج البحث المقترح .

وأبدأ أولا بالتساؤل ما المقصود بالتذييل ، والتتميم ؟ ، ما العلاقة بين التذييل ، والتتميم وبعض المصطلحات البلاغية المشابهة لهما؟، ما قيمة التذييل والتتميم البلاغية؟ ، وما علاقتهما بالإعجاز القرآني؟، وكيف ورد التذييل في آخر الآيات ، ووسطها ، وأولها؟ .

هذه التساؤلات وغيرها هي ما ستجيب عنها هذه الورقة في تمهيدها ومباحثها ومطالبها.

وقد حاولت في هذه الورقة أن أعتمد على المفسرين والبلاغيين ، لعلاقة الموضوع بعلمي التفسير والبلاغة .

أما المنهج الذي اتخذ في هذه الورقة فكان منهجا وصفيا وتحليليا واستقرائيا في كل ما عرضت له في الموضوع .

أما مصادر البحث ومراجعه فكانت دائرة حول المصحف الشريف، وكتب التفاسير والتي أهمها: تفسير التحرير والتنوير.

وقسمت البحث إلى تمهيد ومبحثين، أما التمهيد، فعرفت فيه التذييل لغة واصطلاحا، وكذلك التتميم، والفرق بينهما وبين بعض المصطلحات التي أخلطها بعض العلماء مع هذين المصطلحين، وتحدثت عن حياة الشيخ : الطاهر بن عاشور صاحب التفسير، ثم أكملت التمهيد بنبذة مختصرة عن : تفسير التحرير والتنوير، ومنهج مفسره فيه .

ثم انتقلت إلى المباحث، فجعلت المبحث الأول للتذييل في تفسير التحرير والتنوير في الربع الأول من القرآن الكريم، وقسمته إلى ثلاثة مطالب ، الأول : التذييل في آخر الآيات ، والثاني : التذييل في وسطها ، أما الثالث : فكان بعنوان : التذييل في أول الآيات .

أما المبحث الثاني فجعلته للتتميم في تفسير التحرير والتنوير في الربع الأول من القرآن الكريم .

ثم انتهى مطاف البحث بخاتمة عرضت فيها أهم ما توصلت إليه من نتائج وتوصيات.

وفي ختام المقدمة لا أزعم أنني قد أعطيت أسلوبي التذييل والتتميم حقهما ، وذلك لأن الذي بين يدي كتاب ربي – سبحانه وتعالى – ، الذي لا يحيط بأسراره إلا من تكلم به – سبحانه وتعالى – .

وبعد فإن كان هذا البحث قد حالفه التوفيق في كل المباحث والمطالب أو بعضها ، فإنه بفضل الله ورحمته ، وإن كان غير ذلك فمني والشيطان ، وعلى كل حال فالله أسأل ألا

يحرمني أجر المجتهدين ، وأن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، وهو حسبي ونعم الوكيل ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

التمهيد

لطبيعة البحث الذي يحتوي على: التذييل، والتتميم، وشخصية الشيخ: الطاهر بن عاشور، وتفسيره التحرير والتنوير فقد شمل الآتي :

التذييل لغة : " الذيل آخر كل شيء ، وذيل الثوب والإزار ما جر منه إذا أُسْبِل ، والذيل ذيل الإزار من الرداء ، وهو ما أُسْبل منه فأصاب الأرض ، وذيل المرأة لكل ثوب تلبسه إذا جرّته على الأرض من خلفها ، .... الذيل واحد أذيال القميص وذيوله ، .... وذيل الفرس والبعير ونحوهما : ما أَسْبَلَ مِن ذَنَبِهِ فتعلّق ، وقيل : ذيله ذنبه ، وذال يذيل وأذيل : صار له ذيل ، وذال به شال " [1] .

التذييل اصطلاحا : عرفه صاحب البرهان بقوله : " أن يؤتى بعد تمام الكلام بكلام مستقل في معنى الأول تحقيقا لدلالة منطوق الأول أو مفهومه ليكون معه كالدليل ؛ ليظهر المعنى عند من لا يفهم ، ويكمل عند من فهمه " [2] .

أما السيوطي فقد عرفه وذيله بأدلة من القرآن الكريم فقال : " هو أن يؤتى بجملة عقب جملة ، والثانية تشتمل على المعنى الأول لتأكيد منطوقه ، أو مفهومه ؛ ليظهر المعنى

(1) لسان العرب ، محمد بن مكرم ابن منظور ، دار : صادر – بيروت ، ط : الثالثة ، 1414هـ ، 261/11 .

(2) البرهان في علوم القرآن ، أبو عبد الله بدر الدين الزركشي ، تح : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار : إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه ، ط : الأولى ، 1376هـ – 1957م 68/3 .

لمن لم يفهمه ، ويتقرر عند من فهمه " [1] ، ومثل له بقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ [2] .

وكل التعريفات التي بعد الزركشي ، والسيوطي جاءت بنفس المعنى [3] .

وبما أن بعض العلماء – وخاصة المتقدمين – أخلطوا بين مصطلح التذييل ومصطلحات أخرى مثل : الإيغال ، والاحتراس ، والاعتراض .

فهنا وجب عليّ في هذا البحث أن أفرق بين هذه المصطلحات وبين التذييل .

أولا : الفرق بين التذييل والإيغال [4] :

الإيغال لا يكون إلا في الكلمة التي فيها الروي وما يتعلق بها، وهو أيضا مما يأتي بعد تمام المعنى كالتكميل والتذييل، والإيغال والتذييل لا يكونان إلا في المقاطع دون الحشو، والإيغال والتذييل لا يخرجان عن معنى الكلام المتقدم .

والتذييل يفارق الإيغال لكونه يزيد على الكلمة التي تسمى إيغالا ، آخذا في البيت من الجزء الذي هو الضرب إلى أول العجز .

" والتذييل أعم من الإيغال ، من جهة أنه يكون في ختم الكلام وغيره ، وأخص من جهة أن الإيغال قد يكون بغير الجملة ، ولغير التأكيد " [1] .

---

(1) الإتقان في علوم القرآن ، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، تح : محمد أبو الفضل إبراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط : 1394هـ – 1974م ، 250/3 .

(2) سورة سبأ ، الآية 17 .

(3) ينظر : مثلا : تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ، عبد العظيم بن الواحد بن ظافر ابن أبي الإصبع العدواني ، تقديم وتحقيق : د . حفني محمد شرف ، الناشر : لجنة إحياء التراث الإسلامي ، ص 387 .

(4) المصدر نفسه، 391 .

ثانيا: الفرق بين التذييل والاحتراس [2] :

التذييل يكون عن طريق المنطوق أو المفهوم ، والاحتراس يكون عن طريق المنطوق .

التذييل يكون بجملة ، والاحتراس يكون بكلمة أو جملة .

التذييل يكون للتأكيد ، والاحتراس يكون لرفع إيهام متوقع .

ثالثا: الفرق بين التذييل والاعتراض [3] .

التذيل يكون بجملة، والاعتراض يكون بجملة وأقل من جملة .

التذييل لا يكون إلا في آخر الكلام ، والاعتراض يكون في آخر الكلام ووسطه ، فعلى هذا التذييل أخص من الاعتراض .

التتميم لغة : يقول صاحب اللسان : " تم الشيء يَتِمُّ تَمًّا وتُمًّا وتَمامَةً وتَمَاماً وتِمامَةً وتُماماً وتِماماً وتُمّة وأَتَمَّه غيره وتَمَّمَه واستتمَّه بِمَعَنًى ، وتمَّهُ الله تَتْمِماً وتَتِمَّةً ، وتَمَامُ الشيء وتِمَامَتُهُ وتَتِمَّتُهُ : ما تمَّ به ، قال الفارسيُّ : تمام الشيء ما تمَّ به ، بالفتح لا غير ؛ يحكيه عن أبي زيد ، وأَتَمَّ الشيءَ وتَمَّ به يَتِمُّ : جعله تاماً ، وفي الحديث : (أعوذ بكلمات الله التامات) [4] ، قال ابن الأثير : إنما وصف كلامه بالتمام لأنه لا يجوز أن يكون في شيء من كلامه نقص أو عيب كما يكون في كلام الناس " [1] .

---

(1) ينظر : مختصر المعاني ، سعد الدين التفتازاني، ط : مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت– لبنان، 1424هـ – 2004م، ص: 177.

(2) من أسرار التذييل في آي من التنزيل ، رمضان خميس زكي الغريب ، ص : 17 .

(3) المصدر نفسه ، ص 17 .

(4) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب : الذكر والدعاء والتوبة ، باب : التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره ، حديث رقم (2708) (2081/4) وتمام الحديث : عن خولة بنت حكيم السليمية أنها سمعت رسول الله

التتميم اصطلاحا: سماه ابن المعتز اعتراض وعرفه بقوله : " هو اعتراض كلام في كلام لم يتم معناه ، ثم يعود المتكلم فيتممه " [2] .

وعرفه الزركشي بقوله: " هو أن يتم الكلام فيلحق به ما يكمله، إما مبالغة أو احترازا أو احتياطا، وقيل هو أن يأخذ في معنًى فيذكره غير مشروح، وربما كان السامع لا يتأمله ليعود المتكلم إليه شارحا " [3] .

وبما أن بعض العلماء – وخاصة المتقدمين – أخلطوا بين مصطلح التتميم، والاحتراس، والتكميل، فهنا وجب عليّ أن أفرق بين هذان المصطلحان والتذييل .

الفرق بينه وبين الاحتراس [4]، والتكميل [5]:

يقول ابن أبي الأصبع: " والفرق بين الاحتراس، والتكميل، والتتميم، أن المعنى قبل التكميل صحيح تام، ثم يأتي التكميل بزيادة يكمل بها حسنه إما بفن زائد أو بمعنى، والتتميم يأتي ليتمم نقص المعنى ونقص الوزن معا والاحتراس لاحتمال دخل على المعنى ، وإن كان تاما كاملا ، ووزن الكلام صحيحا ، وقد جعل ابن رشيق الاحتراس نوعا من

– صلى الله عليه وسلم – يقول : (إذا نزل أحدكم منزلا ، فليقل : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ، فإنه لا يضره شيء حتى يرتحل منه) .

(1) لسان العرب ، 67/12 .

(2) البديع في البديع ، أبو العباس عبد الله بن محمد المعتز بالله ، دار : الجيل ، ط : الأولى ، 1410هـ – 1990م ، ص 154 .

(3) البرهان في علوم القرآن ، 70/3 .

(4) عرفه صاحب البرهان بقوله : "هو أن يكون الكلام محتملا لشيء بعيد فيؤتى بما يدفع ذلك الاحتمال " البرهان في علوم القرآن ، 64/3 .

(5) هو " أن يؤتى بعد تمام الكلام بكلام مستقل في معنى الأول تحقيقا لدلالة منطوق الأول ، أو مفهومه ليكون معه كالدليل ليظهر المعنى عند من لا يفهم ، ويكمل عند من فهمه " البرهان في علوم القرآن، 68/3 .

التتميم ، وسوى بينهما ، وقد ظهر الفرق بينهما ، فجعلهما في باب واحد غير سائغ " [1] .

حياة الشيخ : الطاهر بن عاشور

1 – **اسمه ونسبه :** هو محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن الشاذلي بن عبد القادر محمد بن عاشور الشريف الأندلسي ثم التونسي ، الشهير بالطاهر بن عاشور [2] .

2 – **مولده :** ولد الشيخ في جمادى الأولى 1296هـ ، 1879م ، وهو من عائلة عريقة في العلم ، وطبقة اجتماعية رفيعة [3] .

3 – **نشأته :** " كانت نشأة الإمام ابن عاشور علمية منذ البداية ، فبدأ بتعليم القراءة وحفظ القرآن في السادسة من عمره ، حتى أتقنه حفظا ، وحفظ بعض المتون العلمية ، ثم تعلم ما تيسر من اللغة الفرنسية ، وفي عام 1893م دخل جامع الزيتونة الأعظم ، ودرس فيه العلوم الشرعية واللغوية ، وثابر على تعلمه حتى حصل على شهادة التطويع عام 1899م ، وهي شهادة تنتهي بها الشهادة الثانوية وتخول لصاحبها حق التدريس في الدرجات الأولى من التعليم الزيتوني ، كما تحصل على عدة إجازات من شيوخه " [4] .

---

(1) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر ، 245/2 .

(2) الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ومنهجه في تفسيره التحرير والتنوير ، هيا ثامر مفتاح العلي ، دار : الثقافة – الدوحة ، ط : 1994م ، ص 19 .

(3) ينظر : الدرس النحوي والبلاغي عند طاهر ابن عاشور من خلال تفسيره التحرير والتنوير (سورة النبأ أنموذجا) ، اعداد : بو طالب عبد القادر ، تحت إشراف : د . بهلول شعبان ، بحث مقدم لنيل شهادة الليسانس في اللغة والأدب لقسم : اللغة العربية وآدابها ، بكلية : الآداب واللغات والفنون ، جامعة : مولاي الطاهر – سعيدة ، سنة 2016–2017م ، ص 8 .

(4) شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور : حياته وآثاره ، د . بلقاسم الغالي ، دار : الفكر – دمشق ، 1997م ، ص 35 .

4 – **رحلاته العلمية** : " قام برحلات إلى المشرق وأوروبا واستانبول ، وشارك في المؤتمرات العلمية فيها " [1] .

5 – **مؤلفاته** : لقد امتاز الشيخ ابن عاشور بمؤلفات عديدة في مجالات متعددة ، كالتفسير ، والفقه ، والنحو ، والبلاغة ، وغيرها ، ومن أهم ما قدمه كتابه الضخم : التحرير والتنوير ، ومن أهم مؤلفاته المطبوعة كتابه : مقاصد الشريعة في الفقه وأصوله ، وله كتاب في الحديث ومصطلحه وهو : النظر الفسيح عند مضايق الأنظار في الجامع الصحيح ، وغيرها من الكتب الحافلة بالجهد العظيم والعلم الغزير [2] .

6 – **وفاته** : توفي الشيخ ابن عاشور ، يوم الأحد 13 رجب 1393هـ ، الموافق : 1973م ، في تونس عن عمر يقارب سبعا وتسعين عاما ، بعد حياة حافلة بالجد والنشاط والإفادة والتأليف [3] .

تفسير التحرير والتنوير ومنهج مفسره فيه

تعريف عام بتفسير التحرير والتنوير: يعد تفسير التحرير والتنوير من أهم مؤلفات الشيخ الطاهر، فقد فسر فيه القرآن الكريم من سورة الفاتحة إلى سورة الناس، وعنونه باختصار : (التحرير والتنوير)، وهو مختصر من عنوان طويل ذكره في مقدمة هذا التفسير، هو:

(1) الاتجاه اللغوي في تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ، محمد نعمان حسن ، بحث مقدم إلى مجلة القسم العربي ، جامعة: بنجاب لاهور – باكستان ، العدد : الحادي والعشرون ، 2014م .

(2) ينظر : الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ومنهجه في تفسيره التحرير والتنوير ، ص 75 .

(3) محمد الطاهر بن عاشور علامة الفقه وأصوله ، والتفسير وعلومه ، خالد الطباع ، دار : القلم – بيروت، ط:الثالثة، 1997م ص76

(تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد) [1]، ويقع هذا التفسير في ثلاثين جزءا ، وطبعت طبعات مختلفة وكثيرة [2] .

منهجه العام: إن تفسير التحرير والتنوير يعتبر في الجملة تفسيرا بلاغيا بيانيا لغويا عقليا، وطريقة المؤلف فيه أنه يذكر مقطعا من السورة، ثم يشرع في تفسيره مبتدئا بذكر المناسبة، ثم لغويات المقطع، ثم التفسير الإجمالي، ويتعرض فيه للقراءات والفقهيات وغيرها ، والقارئ لهذا التفسير يستطيع أن يتبين منهجه وخطواته بوضوح وسهولة ، لأن الشيخ ابن عاشور قدّم لتفسيره بمقدمات عشر ذات صلة بالتفسير وعلوم القرآن .

يذكر مقدمات السور في بداية كل سورة يريد الخوض في تفسيرها من اسمها ، ووجه التسمية ونحوها ، ثم يبين أسباب النزول بالإسناد إلى روايات وأحاديث نبوية ، ثم يذكر تناسب الآيات بعضها ببعض ، وهو لا يري التناسب بين السور مطلقا فلا يبينها ، واهتم بالقراءات ، ويتعرض إلى اختلاف القراءات العشر المشهورة المتواترة ، وركز على إبراز النكات البلاغية إلى جانب بيان المفردات ونحو ذلك ، واعتمد كثيرا على التفاسير بالمأثور ، فيفسر الآية بالآية ، أو يفسرها بالحديث الشريف ، أو بأقوال الصحابة والتابعين ، كما بين الأحكام الفقهية والتعرض لها ، وحرص على إبراز وجوه الإعجاز [3]

(1) ينظر : تفسير التحرير والتنوير ، الشيخ : محمد الطاهر بن عاشور ، دار : سحنون للنشر والتوزيع – تونس ، 1997م ، 8/1 .

(2) ينظر : الدرس النحوي والبلاغي عند طاهر ابن عاشور من خلال تفسيره التحرير والتنوير (سورة النبأ أنموذجا) ، ص 13 .

(3) الدرس النحوي والبلاغي عند طاهر ابن عاشور من خلال تفسيره التحرير والتنوير (سورة النبأ أنموذجا) ، ص 13 .

المبحث الأول

التذييل في تفسير التحرير والتنوير في الربع الأول من القرآن الكريم

ورد التذييل عند ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير في الربع الأول من القرآن الكريم لا يقل عن مائة وتسعة وستين تذييلا ، منها ما هو في آخر الآية ، ومنها ما هو في وسطها ، ومنها في أولها ، وبهذا قسمت هذا المبحث إلى ثلاثة مطالب وهي كالآتي :

المطلب الأول التذييل في آخر الآيات

وقد ورد في تفسير التحرير والتنوير كما تبين لي في مائة وخمسة عشر موضعا، وهي كالآتي :

ورد التذييل في آخر الآية في قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [1].

فقوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ تذييل ، وهذا التذييل أفاد البشارة، فهو " تذييل قصد به تحقيق الوعد بحصول الإجابة ، وزيادة تبشير لأهل ذلك الموقف ؛ لأن إجابة الدعاء فيه سريعة ، فعلم أن الحساب هنا أطلق على مراعاة العمل والجزاء عليه " [2] .

ومن أسرار هذا التذييل : " دلالته على وفاء الله بوعده ؛ لأن المؤمنين داخلون فيمن يقع لهم سرعة حساب ربهم ، وفيه تعجيل بحصول مقصودهم " [3] ، فالتذييل هنا " أريد به الوفاء بالوعد ، وإيصال الموعود به ، فاستفادة التبشير بسرعة حصول مطلوبهم بطريق

(1) سورة البقرة ، الآية 202 .

(2) تفسير التحرير والتنوير ، 249/2 .

(3) من أسرار التذييل في آي من التنزيل

العموم ؛ لأن إجابتهم من جملة حساب الله تعالى عباده على ما وعدهم فيدخل في ذلك العموم " [1] .

وهذا التذييل أفاد عدم المشابهة بين الله تعالى، وبين خلقه، ويقول صاحب جامع البيان: " وإنما وصف جل ثناؤه نفسه بسرعة الحساب، لأنه جل ذكره يحصي ما يحصي من أعمل عباده بغير عقد أصابع، ولا فكر ولا روية، فعل العجزة الضعفة من الخلق، ولكنه لا يخفي عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يعزب عنه مثقال ذرة فيهما ، ثم هو مجاز عباده على كل ذلك " [2] .

ويبرز التذييل عند ابن عاشور في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [3] ، التذييل هو قوله : ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

والجملة في قوة التذييل، ولم يذكر متعلق للصفتين ليكون الناس ساعين في تحصيل أسباب المغفرة والرحمة [4] .

وهذا التذييل " مقرر لما قبله مع زيادة وعد الرحمة ، ووضع الاسم الجليل – أي في قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ – موضع الضمير للإشعار باستتباع وصف الألوهية للمغفرة والرحمة " [5] .

---

(1) تفسير التحرير والتنوير ، 249/2 .

(2) جامع البيان في تفسير القرآن (تفسير الطبري) ، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، دار : الريان ، القاهرة ، 1407هـ – 1987م ، 208/4 .

(3) سورة آل عمران ، الآية 31 .

(4) تفسير التحرير والتنوير ، 228/3 .

(5) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، أبو السعود العمادي محمد ، دار : إحياء التراث العربي – بيروت ، 25/2 .

والآية الكريمة بدأت بأمر من الله إلى رسوله – صلى الله عليه وسلم – " بامتحان هؤلاء القوم بأن محبة الله مقرونة بحبه، فمن أحب الله لزمه محبة رسوله – صلى الله عليه وسلم – ؛ فإن كنتم تزعمون محبة الله فاتبعوني؛ وذلك لأن محبة الله لا تنال إلا عن طريقي باتباع ما أمرتكم به، والانتهاء عما نهيتكم عنه " [1] .

والأمر في قوله : ﴿ فَٱتَّبِعُونِى ﴾ " للوجوب ، والغرض منه النصح والإرشاد ؛ وذلك لأن دعوة الأنبياء لازمة لقومهم ، ليس لهم أن يتخلفوا عنها ، وإلا لما حصل العذاب والإهلاك لمن خالف في ذلك " [2] .

ومن التذييل الذي ورد في آخر الآية في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِى دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴾ [3]،اعتبر ابن عاشور قوله تعالى : ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ تذييل [4] ، " والوكيل: الحافظ ، والمراد هنا حافظ ما في السماوات والأرض ، أي الموجودات كلها " [5]

وعند النظر في أول الآية نجد أن الله – سبحانه وتعالى – ترك لأهل الكتاب " حرية الاختيار الكامل في أمر الإيمان بالله وحده ، والتصديق برسله في الفعلين ﴿ ءَامِنُواْ ﴾، ﴿ٱنتَهُواْ﴾، وسبَّق بالإيمان سبحانه ؛ لأنه لو اختاروا الإيمان على الكفر لانتهوا من تلك السخافات التي تعبئ رؤوسهم الفارغة ، وذيّلت الآية بالتأكيد على وحدانية الله – سبحانه

(1) سورة آل عمران – دراسة بلاغية ، سعد بن عبد العزيز الدريهم ، رسالة دكتوراه مقدمة إلى كلية اللغة العربية ، جامعة أم القرى ، 1422هـ ، ص 285 .

(2) المصدر نفسه، ص 285 .

(3) سورة النساء ، الآية 171 .

(4) ينظر : تفسير التحرير والتنوير ، 59/6 .

(5) المصدر نفسه، 59/6 .

– ، وإن كان لهم نصيب في الخير واختاروا الإيمان والانتهاء سينالون الخير ، وإلا فقد استحبوا العمى على الهدى ، كما يحتمل أن تكون الآية في أوامرها ونواهيها للتحذير أيضا " [1] .

وحذف " مفعول ﴿ كَفَىٰ ﴾ للعموم ، أي كفى كل أحد ، أي فتوكلوا عليه ، ولا تتوكلوا على من تزعمونه ابنا له " [2] .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ ، جملة وضحت وبينت الحد الذي كان الغلو عنده [3] ، أي : " أن غلوهم رفع المسيح من صفته الحقيقية – وهي كونه رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم ، وكونه روحا من عند الله – إلى منزلة جعلته إلها يعبد في عرفهم وملتهم ، وذلك هو الغلو ، فلم يذكره المولى مباشرة ، ولكن ذكر ما يبطله بتحقيق صفات المسيح التي ينبغي معرفتها ، والاعتراف والوقوع عند حدها ، وذلك هو الحق الذي طلب منهم قوله [4] .

وقوله : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ ﴾ قال ابن عاشور : " عطف خاص على عام للاهتمام بالنهي عن الافتراء الشنيع ، وفعل القول إذا عدي بحرف (على) دل على أن نسبة القائل القول إلى المجرور بـ ﴿ عَلَى ﴾ نسبة كاذبة " [5] .

(1) سورة النساء – دراسة بلاغية تحليلية ، خديجة محمد البناني ، رسالة دكتوراه مقدمة إلى كلية اللغة العربية جامعة أم القرى بمكة المكرمة 1423هـ ، 289/1

(2) تفسير التحرير والتنوير ، 59/6 .

(3) ينظر : تفسير التحرير والتنوير ، 51/6 .

(4) سورة النساء – دراسة بلاغية تحليلية ، 348/2 .

(5) تفسير التحرير والتنوير ، 51/6 .

وهنا " جعل القول جزء من الغلو لما كان يتردد على ألسنتهم من الإفتراءات الكاذبة على الله تعالى ، وعلى عيسى عليه السلام " [1] .

وفي الآية تذييل آخر في رأي ابن عاشور ، وهو قوله تعالى : ﴿ لَّهُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ ﴾ فهو " تذييل يفيد التعليل لقوله تعالى : ﴿ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ﴾ ؛ لأن الذي له ما في السموات وما في الأرض قد استغنى عن الولد ، ولأن من يزعم أنه ولد له هو مما في السموات والأرض كالملائكة أو المسيح ، فكلٌ عبيده ، وليس الابن بعبد " [2] .

وفي الآية عدة مواضع للفصل ، تهدف جميعها إلى التأكيد ، ففي قوله تعالى : ﴿ٱنتَهُواْ﴾ جملة فصلت عما قبلها ﴿ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ ۚ ﴾ ؛ لأنها تحمل نفس معنى النهي ، ولكن بلهجة أشد وأغلظ ، ثم يردف هذا الرجز بقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ ﴾ ، فهل هذا إلا تكذيب للتثليث ، وتحقيق الوحدانية بنفيه ؟ ثم تأتي جملة ﴿ سُبْحَٰنَهُۥٓ ﴾ لتنزهه – جل جلاله – عن عقيدة النصارى الفاسدة ، وتختم الآية بنفس الغرض تأكيدا على ما ورد فيها من أعظم أمر يقوم عليه ديننا الحنيف ، وهو وحدانية الله – سبحانه وتعالى – بقوله : ﴿ لَّهُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ ﴾ [3]، ثم ذيل الآية بقوله : ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ ، " والمعنى : أن الله – سبحانه وتعالى – كاف في تدبير المخلوقات ، وفي حفظ المحدثات ، فلا حاجة معه إلى القول بإثبات إله آخر ، وهو إشارة إلى ما يذكره المتكلمون من أنه سبحانه لما كان عالما بجميع المعلومات ، قادرا على كل المقدورات ،

(1) سورة النساء – دراسة بلاغية تحليلية ، 349/2 .

(2) سورة النساء – دراسة بلاغية تحليلية ، 354/2 .

(3) ينظر : المصدر نفسه، 374/2 .

كان كافيا في الإلهية ، ولو فرضنا إلها آخر معه لكان معطَّلا لا فائدة فيه ، وذلك نقص ، والناقص لا يكون إلها " [1] .

وبقية الآيات التي ورد التذييل في آخرها في تفسير التحرير والتنوير في الربع الأول من القرآن الكريم كما تبين لي مائة وإحدى عشرة آية [2] .

المطلب الثانية التذييل في وسط الآيات

وقد ورد في تفسير التحرير والتنوير في الربع الأول من القرآن الكريم كما ظهر لي في ستة وعشرين موضعا، وهي كالآتي :

(1) مفاتيح الغيب ، أبو عبد الله محمد بن عمر الحسن الملقب بالفخر الرازي ، دار الغد العربي ، القاهرة ، ط : الأولى ، 270/11 .

(2) ينظر : في سورة البقرة : الآيات : 20 – 37 – 74 – 82 – 93 – 105 – 108 – 109 – 110 – 113 – 115 – 126 – 129 – 144 – 147 – 148 – 153 – 158 – 173 – 176 – 184 – 195 – 202 – 205 – 207 – 210 – 212 – 213 – 215 – 216 – 220 – 222 – 224 – 225 – 228 – 229 – 232 – 235 – 246 – 258 – 263 – 264 – 266 – 267 – 269 – 284 .

سورة آل عمران : الآيات : 6 – 7 – 31 – 56 – 57 – 58 – 68 – 74 – 92 – 119 – 126 – 136 – 138 – 145 – 148 – 160 .

سورة النساء : الآيات : 12 – 19 – 28 – 32 – 34 – 36 – 43 – 45 – 84 – 85 – 86 – 102 – 119 – 122 – 130 – 152 – 165 – 176 .

سورة المائدة : الآيات : 7 – 32 – 51 – 71 – 72 – 74 – 87 – 89 – 95 – 117 .

سورة الأنعام : الآيات : 21 – 28 – 31 – 35 – 50 – 53 – 58 – 62 – 101 – 103 – 115 – 119 – 125 – 128 – 135 – 146 – 147 – 151 – 152 – 153 – 165 .

ورد التذييل في وسط الآية في قوله تعالى: ﴿ وَأَنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓاْ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [1] ، فقوله: ﴿ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ تذييل، وهذا التذييل مناسب مع صدر الآية ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَأَنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ " حيث أمر الله تعالى عباده بالإنفاق في سبيل الله، وأرشدهم في الجملة الثانية إلى عدم إلقاء أنفسهم في الهلاك؛ فإن البخل والنكوص عن الجهاد وأسبابه سبب من أسباب الذل في الدنيا ، والهلاك في الدنيا والآخرة " [2] " فالجملة فيها معنى التذييل، وإنما عطفت ولم تفصل باعتبار أنها غرض آخر من أغراض الإرشاد " [3] .

ومن أسرار هذا التذييل كما ذكر ابن عاشور ، الدلالة على المعنى بطريق آكد ، حيث نهت الآية عن إلقاء النفس في التهلكة ، وعدم الإنفاق في سبيل الله صورة واحدة من صور هذا الإلقاء " فالنهي عن الإلقاء بالنفوس إلى التهلكة يجمع معنى الأمر بالإنفاق وغيره من تصاريف الحرب وحفظ النفوس " [4] .

ومن أسراره أيضا الأخذ بالأسباب، وعدم اتكال المسلمين على أنهم يعملون في سبيل الله، فالآية من باب " عطف غرض على غرض، عقب الأمر بالإنفاق في سبيل الله بالنهي عن الأعمال التي لها عواقب ضارة إبلاغا للنصيحة والإرشاد لئلا يدفع بهم يقينهم بتأييد الله إياهم إلى التفريط في وسائل الحذر من غلبة العدو " [5]

(1) سورة البقرة ، الآية 195 .
(2) من أسرار التذييل في آيٍ من التنزيل ، ص 39 .
(3) تفسير التحرير والتنوير ، 213/2 .
(4)المصدر نفسه، 213/2 .
(5) تفسير التحرير والتنوير ، 213/2 .

وفي الآية نهي عن ترك الغزو ، وترك الإنفاق في سبيل الله بطريق بليغ ؛ إذ عقبت على ترك الغزو والإنفاق فيه بهذا التذييل ، " فهو متعلق بمجموع المعطوف والمعطوف عليه نهيا عن ضدهما تأكيدا لهما " [1] .

وتعبير الله – سبحانه وتعالى – بالأيدي عن النفس " يدل على أن هذا الذي يسعى إلى الهلاك إنما يسعى إليه بنفسه وهو على بصر به ، يقال سعى إلى حتفه بنفسه ، وقال هذا الكلام بلسانه ورأيته بعيني " [2] ، كما يقال : أهلك فلان نفسه بيده ، إذا تسبب لهلاكهما " [3] ، وفي ذلك من التشنيع على من يصنع ذلك ما فيه .

كما ورد تذييلان في وسط الآية الخامسة والعشرون من سورة النساء ، في قوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍۚ ﴾ [4] التذييل الأول : قوله : ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ ﴾ " لما أمر الله بنكاح الإماء عند العجز عن الحرائر ، وكانوا في الجاهلية لا يرضون بنكاح الأمة وجعلها حليلة ، ولكن يقضون منهن شهواتهم بالبغاء ، فأراد الله إكرام الإماء المؤمنات ، جزاء على إيمانهن ، وإشعارا بأن وحدة الإيمان قربت الأحرار من العبيد ، فلما شرع ذلك كله ، ذيله بقوله : ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ ﴾ أي : بقوته ، فلما كان الإيمان هو الذي رفع المؤمنين عند الله درجات ، كان إيمان

(1) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، شهاب الدين محمود الألوسي ، تح : علي عبد الباري عطية ، دار : الكتب العلمية – بيروت ، ط : الأولى ، 1415هـ ،474/1 .

(2) من أسرار التذييل في آيٍ من التنزيل ، ص 42 .

(3) مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، أبو البركات عبد الله النسفي ، تح : يوسف على بديوي ، دار الكلم الطيب بيروت ، ط : الأولى ، 1419هـ – 1998م ، 167/1 .

(4) سورة النساء ، الآية 25 .

الإماء مقنعا للأحرار بترك الاستنكاف عن تزوجهن ، ولأنه رب أَمَةٌ يكون إيمانها خيرا من إيمان رجل حر [1] ، وهذا كقوله : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ ﴾ [2] .

أما التذييل الثاني فهو قوله : ﴿ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ﴾ وهذا التذييل أكد به المعنى " المراد من قوله : ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ ﴾ فإنه بعد أن قرب إليهم الإماء من جانب الوحدة الدينية ، قربهن إليهم من جانب الوحدة النوعية، وهو أن الأحرار والعبيد كلهم من بني آدم، فـ ﴿ مِّنۢ ﴾ اتصالية [3] .

" وإطلاق المحصنات على النساء اللاتي يتزوجن الرجال إطلاق مجازي بعلاقة المآل، أي اللائي يصرن محصنات بذلك النكاح إن كن أبكارا " [4] ، "واختيار تسميتهن بذلك تكريما لهم ورفعة ، وتنويها على ما يتوقع من المرأة المسلمة دائما " [5] .

وأسند التملك في الآية إلى الأيدي مجازا عقليا ؛ لأنها علاقة سببية ، " والغرض من هذا المجاز تصوير هذه الفئة من النساء بصورة الأسير الذليل الذي لا يملك لنفسه شيئا ، حثا على التلطف بهن والإحسان لهم ، خصوصا وأنْ ليس لهن من الحقوق مثل الحرائر " [6] .

(1) تفسير التحرير والتنوير ، 15/5 .
(2) سورة الحجرات ، الآية 13 .
(3) تفسير التحرير والتنوير ، 15/5 .
(4) تفسير التحرير والتنوير ، 13/5 .
(5) سورة النساء – دراسة بلاغية تحليلية ، 424/2 .
(6)المصدر نفسه، 449/2 .

وبقية الآيات التي ورد التذييل في وسطها في تفسير التحرير والتنوير في الربع الأول من القرآن الكريم كما تبين لي ثلاث وعشرون آية [1] :

المطلب الثالث التذييل في أول الآيات

وقد ورد في تفسير التحرير والتنوير في الربع الأول من القرآن الكريم كما ظهر لي في ثمانية وعشرين موضعا ، وهي كالآتي :

منها قوله تعالى : ﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [2] ، فهذه الآية بها تذييلان ، الأول : في أول الآية ، وهو قوله : ﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ ﴾ فأول الآية " جملة مستأنفة فصلت عن سوابقها ، لأنه استئناف بياني ، فإنه لما بين تعميم الأمكنة ، وأخرج منها المسجد الحرام في حالة خاصة ، كان السامع بحيث يتساءل عما يماثل البقاع الحرام وهو الأزمنة الحرام ، أعني الأشهر الحرم التي يتوقع حظر القتال فيها ، فإن كان هذا تشريعا نازلا على غير حادثة فهو استكمال واستفصال لما تدعو الحاجة إلى بيانه في هذا المقام المهم ، وإن كان نازلا على سبب كما قيل : إن المسلمين في عام القضية لما قصدوا مكة في ذي القَعْدة سنة سبع معتمرين ، خشوا ألا يفي لهم المشركون بدخول مكة ، أو أن يغدروهم ويتعرضوا لهم بالقتال قبل دخول مكة

(1) ينظر : في سورة البقرة : الآيات : 74 – 176 – 187 – 191 – 197 – 198 – 211 – 216 – 217 – 220 – 221 – 233 – 237 – 283.
سورة آل عمران : الآيات : 13 – 29 – 180 – 189 .
سورة : النساء : الآيتان ، 24 – 128 .
سورة : المائدة : الآيتان ، 2 – 4 – 54 .

(2) سورة البقرة ، الآية 194 .

وهم في شهر جرام ، فإن دافعوا عن أنفسهم انتهكوا حرمة الشهر ، فنزلت هذه الآية " [1] .

وجملة التذييل أتت معقبة على الآية التي قبلها وهي قوله تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [2]، ومؤكدة لها .

والباء في قوله : ﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ ﴾ " للتعويض ، كقولهم : صاعا بصاع ، وليس ثمة شهران ، بل المراد انتهاك الحرمة منهم ومنكم ، وهما انتهاكان " [3] .

وأما التذييل الثاني وهو قوله تعالى : ﴿ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ ﴾ ، ومن أسرار هذا التذييل " العموم والشمول في الحكم ، وهذا مفاد من الجمع ﴿ الحرمات ﴾ " [4] ، وإنما قال جل ثناؤه : ﴿ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ ﴾ " فجمع ، لأنه أراد : الشهر الحرام ، والبلد الحرام ، وحرمة الإحرام " [5] ، وهذا " يتناسب مع طبيعة التذييل في دلالته على العموم ، ويتناسب مع طبيعة المثل الدال أيضا على التكرار والعموم ، كما يتناسب مع صدر الجملة المذيلة ﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ ﴾ ، حيث إن الألف واللام هنا تفيد تعريف الجنس على الأظهر ، وفي ذلك من التناسب والتطابق بين أول الكلام وآخره ما فيه " [6] .

ومن أسرار هذا التذييل أيضا : " أن الله جعل الحرمة للأشهر الحرم لقصد الأمن ، فإذا أراد أحد أن يتخذ ذلك ذريعة إلى غدر الأمن ، أو الإضرار به ، فعلى الآخر الدفاع عن

(1) تفسير التحرير والتنوير ، 210/2 .
(2) سورة البقرة ، الآية 193 .
(3) تفسير التحرير والتنوير ، 210/2 .
(4) من أسرار التذييل في آي من التنزيل ، ص 37 .
(5) جامع البيان في تفسير القرآن ، 579/3 .
(6) من أسرار التذييل في آي من التنزيل ، ص 37 .

نفسه ، لأن حرمة الناس مقدمة على حرمة الأزمنة ، ويشمل ذلك حرمة المكان ، والإخبار عن الحرمات بلفظ ﴿ قِصَاصٌ ﴾ إخبار بالمصدر للمبالغة " [1] .

وورد التذييل في أول الآية في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [2] ، هذه " الجملة تذييل للكلام الذي مضي مبتدئا بقوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [3] ، والتفصيل : التبيين والتوضيح ، مشتق من الفصل ، وهو تفرق الشيء عن الشيء ..... والمراد بالتفصيل الإيضاح، أي الإتيان بالآيات الواضحة الدلالة على المقصود منها " [4].

والمقصود بالآيات : " آيات القرآن ، والمعنى : نفصل الآيات ونبينها تفصيلا مثل هذا التفصيل الذي لا فوقه تفصيل ، وهو تفصيل يحصل به علم المراد منها بينا " [5] .

ومن اللطائف البلاغية في قوله تعالى : ﴿ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ إسناد فعل الاستبانة الذي هو بمعنى الظهور البيّن [6] ، إلى كلمة "سبيل وهذا من قبيل المجاز العقلي، وقرينة هذا المجاز أن هذه الاستبانه علة لفعل مقدر بيد الله . جل وعلا .؛ أي: ولتستبين سبيلُهم؛ يفعل الله ما يفعل من تفصيل الآيات "، وكأن في إسناد الاستبانة للسبيل مبالغة في ظهور هذا الطريق وبيانه بياناً لا أوضح منه؛ إذ إن السبيل نفسه يظهر نفسه بنفسه .

---

(1) تفسير التحرير والتنوير ، 211/2 .

(2) سورة الأنعام ، الآية 55 .

(3) سورة الأنعام ، الآية 51

(4) تفسير التحرير والتنوير ، 260/7 .

(5) تفسير التحرير والتنوير ، 260/7 .

(6) ينظر : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، إبراهيم بن عمر البقاعي ، دار : الكتاب الإسلامي القاهرة ، 131/7 .

وخص المجرمين بالذكر في قوله : ﴿ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ دون (سبيل المؤمنين) لأنهم المقصود من هذه الآيات كلها لإيضاح خفي أحوالهم للنبي – صلى الله عليه وسلم – والمسلمين [1] .

ثم إن تبين سبيلهم يتضمن بيان سبيل المؤمنين [2] ؛ لأنه متى بانت خاصية أحد القسمين بانت خاصية القسم الآخر [3] ؛ ولأن دفع المفاسد مقدم وأهم [4] .

وبقية الآيات التي ورد التذييل في أولها في تفسير التحرير والتنوير في الربع الأول من القرآن الكريم كما تبين لي خمس وعشرون موضعا [5] .

المبحث الثاني التتميم في تفسير التحرير والتنوير في الربع الأول من القرآن الكريم

لم يرد التتميم في تفسير التحرير والتنوير في الربع الأول من القرآن الكريم إلا في سبع آيات فقط ، وهي كالآتي :

ورد في قوله تعالى : ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ [6] ، لما افتتح الله – عز وجل – خطاب بني إسرائيل " بالتذكير بالنعمة ، الباعث على شكر المنعم ومراقبة حقه ، والمطهر لهم من الحسد ، فإنه

(1) ينظر : تفسير التحرير والتنوير ،261/7 .
(2) المحور الوجيز ، 61/6 .
(3) مفاتيح الغيب ، 8/5 .
(4) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، 131/7 .
(5) ينظر : في سورة البقرة ، الآيات ، 39 – 161 – 179 – 194 – 213 – 223 – 254 – 270 .
سورة آل عمران ، الآيات : 108 – 109 – 115 – 129 .
سورة النساء ، الآيات ، 26 – 56 – 70 – 126 – 136 – 147 .
سورة المائدة ، الآيتان ، 105 – 120 .
سورة الأنعام ، الآيات ، 46 – 84 – 129 – 140 – 160 .
(6) سورة البقرة ، الآية 40 .

صارف عن الاعتراف بالنعمة ، ثم عطف عليه قوله : ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ ﴾ وهو مبدأ المقصود من الأمر بتصديق الرسول الموعود به على ألسنة أنبيائهم ، ثم عقب ذلك بقوله : ﴿ وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ ، فهو تتميم لذلك الأمر السابق بالنهي عما يحول بينهم وبين الإيفاء بالعهد على وجهه ، وذلك هو صد كبريائهم ، وأحبارهم إياهم عن الانتقال عما هم عليه من التمسك بالتوراة ، فإنهم هم القوم الذين كانوا يقولون لملك بلادهم فرعون مصر يوم بعثة موسى ﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾ [1] فكانوا أحرياء بأن يخاطبوا سادتهم وأحبارهم بمثل ذلك الخطاب عند البعثة المحمدية " [2] .

وفي التفسير الكبير للرازي : " قوله : ﴿ وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ ، يدلُّ على أن المرءِ يجب أن لا يخاف أحداً إلا اللهَ تعالى ، وكما يجب ذلك في الخوف فكذا في الرجاء والأمل ، وذلك يدُلُّ على أن الكلَّ بقضاء الله وقدَره ، إذ لو كان العبد مستقلا بالفعل لوجب أن يُخَافَ منه كما يُخافُ من الله تعالى ، وحينئذ يَبْطُلُ الحَصْرُ الذي دلَّ عليه قوله تعالى : ﴿ وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ بل كان يجب أَنْ لا يَرْ هَبَ إلاّ نفْسَهُ ، لأن مفاتيح الثَّوابِ والعقاب بيده لا بيد الله تعالى ، فوجب أن لا يخافَ إلا نفْسَهُ ، وأن لا يَخاف اللهَ أَلْبَتَّةَ ، وفيها دلالة على أنه يجب على المكلَّفِ أن يأتيَ بالطاعات للخوف والرجاء ، وأن ذلك لا بد منها " [3] .

ومن الآيات التي ورد فيها التتميم في تفسير التحرير والتنوير، قوله تعالى : ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ [4] .

---

(1) سورة طه ، الآية 72 .

(2) تفسير التحرير والتنوير ، 454/1 .

(3) مفاتيح الغيب، ج 483/3 .

(4) سورة المائدة ، الآيتان 98 – 99 .

افتتح الله – سبحانه وتعالى – هذه الآية بقوله : ﴿ ٱعْلَمُوٓا ﴾ للاهتمام بالخبر . [1] .

وقد استوفي قوله تعالى : ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ " أقسام معاملته – تعالى – فهو شديد العقاب لمن خالف أحكامه ، وغفور لمن تاب وعمل صالحا " [2] .

وجملة : ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ ﴾ " معترضة ذيل بها التعريض بالوعيد والوعد ، ومضمونها إعذار الناس ؛ لأن الرسول قد بلّغ إليهم ما أراد الله منهم ، فلا عذر لهم في التقصير، والمنة لله ولرسوله فيما أرشدهم إليه من خير " [3] .

وعطف الله قوله : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ على جملة : ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ " وهي تتميم للتعريض بالوعيد والوعد تذكيرا بأنه لا يخفى عليه شيء من أعمالهم ظاهرها وباطنها " [4] .

والمقصود من ذكر ﴿ مَا تُبْدُونَ ﴾ " التعميم والشمول مع ما تكتمون ، وإلا فالغرض هو تعليمهم أن الله يعلم ما يسرونه ، أما ما يبدونه فلا يظن أن الله لا يعلمه " [5] .

وبقية الآيات التي ورد فيها التتميم في تفسير التحرير والتنوير في الربع الأول من القرآن الكريم كما تبين لي خمس آيات [6] .

(1) ينظر : تفسير التحرير والتنوير ، 61/7 .
(2) المصدر نفسه، 61/7 .
(3) المصدر نفسه، 61/7 .
(4) المصدر نفسه، 61/7 .
(5) المصدر نفسه، 61/7 .
(6) ينظر في سورة : الفاتحة ، الآيات : 1 – 2 – 3 . سورة البقرة ، الآية ، 114 . سورة المائدة ، 86 .

الخاتمة والنتائج

الحمد لله أولا وآخرا ، والصلاة والسلام على نبي الهدى ، ورسول البشرية جمعاء ، المعلم القدوة ، سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد :

فبعد هذا الجهد المتواضع ، في هذا البحث الموسوم بـ (من بلاغة التذييل والتتميم في تفسير التحرير والتنوير – الربع الأول من القرآن الكريم أنموذجا –) والذي يأتي خدمة لكتاب الله – تعالى – أولا ، ولنفسي والدارسين ثانيا ، خلصت إلى النتائج الآتية :

1 – من خلال الحصر الذي قمت به للآيات الكريمة ، تبين لي أن التذييل يكون في آخر الآيات ، ووسطها ، وأولها ، كما بينت ذلك في مباحث البحث ومطالبه .

2 – وتبين لي أن التذييل في آخر الآيات ورد في تفسير التحرير والتنوير فيما لا يقل عن مائة وخمسة عشر موضعا، وفي وسطها لا يقل عن ستة وعشرين موضعا، وفي أولها لا يقل عن ثمانية وعشرين موضعا.

3 – ومن خلال الحصر الذي قمت به للآيات الكريمة ، تبين لي أن التتميم لم يرد في تفسير التحرير والتنوير في الربع الأول إلا في سبع آيات فقط .

هذا وبالله التوفيق

قائمة المصادر والمراجع

* – القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم .

1 – تفسير التحرير والتنوير، الشيخ: محمد الطاهر بن عاشور، دار: سحنون للنشر والتوزيع – تونس، 1997م.

2 – الاتجاه اللغوي في تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، محمد نعمان حسن، بحث مقدم إلى مجلة القسم العربي، جامعة: بنجاب لاهور – باكستان، العدد: الحادي والعشرون، 2014م .

3 – الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط : 1394هـ – 1974م.

4 – إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، أبو السعود العمادي محمد ، دار : إحياء التراث العربي – بيروت .

5 – البديع في البديع ، أبو العباس عبد الله بن محمد المعتز بالله ، دار : الجيل ، ط : الأولى ، 1410هـ – 1990م .

6 – البرهان في علوم القرآن ، أبو عبد الله بدر الدين الزركشي ، تح : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار : إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه ، ط : الأولى ، 1376هـ – 1957م .

7 – تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، عبد العظيم بن الواحد بن ظافر ابن أبي الإصبع العدواني، تقديم وتحقيق: د . حفني محمد شرف، الناشر: لجنة إحياء التراث الإسلامي.

8 – جامع البيان في تفسير القرآن (تفسير الطبري)، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار: الريان، القاهرة، 1407هـ – 1987م ، 208/4 .

9 – الدرس النحوي والبلاغي عند طاهر ابن عاشور من خلال تفسيره التحرير والتنوير (سورة النبأ أنموذجا)، إعداد: بو طالب عبد القادر، تحت إشراف: د . بهلول شعبان، بحث مقدم لنيل شهادة الليسانس في اللغة والأدب لقسم : اللغة العربية وآدابها ، بكلية : الآداب واللغات والفنون ، جامعة : مولاي الطاهر – سعيدة ، سنة 2016–2017م .

10 – روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود الألوسي، تح: علي عبد الباري عطية، دار: الكتب العلمية – بيروت ، ط : الأولى ، 1415هـ.

11 – سورة آل عمران – دراسة بلاغية، سعد بن عبد العزيز الدريهم، رسالة دكتوراه مقدمة إلى كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى، 1422هـ.

12 – سورة النساء – دراسة بلاغية تحليلية ، خديجة محمد البناني ، رسالة دكتوراه مقدمة إلى كلية اللغة العربية جامعة أم القرى بمكة المكرمة 1423هـ .

13 – شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور : حياته وآثاره ، د . بلقاسم الغالي ، دار : الفكر – دمشق ، 1997م .

14 – الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ومنهجه في تفسيره التحرير والتنوير ، هيا ثامر مفتاح العلي ، دار : الثقافة – الدوحة ، ط : 1994م .

15 – لسان العرب، محمد بن مكرم ابن منظور، دار: صادر – بيروت، ط: الثالثة، 1414هـ .

16 – محمد الطاهر بن عاشور علامة الفقه وأصوله، والتفسير وعلومه، خالد الطباع، دار: القلم – بيروت، ط: الثالثة، 1997م .

17 – مختصر المعاني، سعد الدين التفتازاني، ط : مؤسسة التاريخ العربي، بيروت– لبنان، 1424هـ – 2004م .

18 – مدارك التنزيل وحقائق التأويل، أبو البركات عبد الله النسفي، تح: يوسف على بديوي، دار الكلم الطيب بيروت ، ط : الأولى ، 1419هـ – 1998م .

19 – مفاتيح الغيب ، أبو عبد الله محمد بن عمر الحسن الملقب بالفخر الرازي ، دار الغد العربي ، القاهرة ، ط : الأولى .

20 – من أسرار التذييل في آي من التنزيل ، رمضان خميس زكي الغريب ، ب – ت .

21 – نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، إبراهيم بن عمر البقاعي ، دار : الكتاب الإسلامي القاهرة .

* * *